



٣

شعراء المهجر

• محبوب الخوري الشرتوني - ايليا ابي ماضي

يكتفي الناقد الاديب من شعراء المهجر بشاعرين اثنين هما محبوب الخوري الشرتوني وايليا ابي ماضي . فارق الاول هذه الغاية بعد ظهور الكتاب بقليل ، (٢٧ حزيران ١٩٣١) وقد قام بما عليه نحو الادب ناشراً في « الهدى » ثم في جريدته « الرقيق » القصائد والتقطعات والابحاث النقدية واللغوية . ولا يزال الثاني يخدم الادب العربي الخدمة الجليلة في مجلته « السير » النيويوركية . والشاعران من اولئك الذين تدارلت الالسنه اسماؤهم قبيل الحرب الكبرى ففاخررا وفوخر بهم ، وفاضلوا بين الشعراء . وفوزل بينهم . وهما من الذين قاموا على شوقي فانتقدوه انتقادات تتفاوت رفقا وشدة ، وتختلف صحةً وشطاطاً . فكان من كل ذلك سبب مهم دفع الناقد الى الاهتمام بشعرهما اهتماماً جاوز به الحد المتوسط لناظر من يذكركم في كتابه من الشعراء . فخص بمحبوب الخوري الشرتوني ٤٤ صفحة ، وايليا ابي ماضي ٢١ صفحة . على اننا وددنا لو اختصر في ذكر هذين الشعارين . وقد كان يوسه حصر ما قاله فيما يبضع صفحاته . وعرض شيئاً لذكر سائر شعراء المهجر ، ومنهم من انتقد شوقي ايضاً كميخائيل نعيمة . وهو ، لو فعل ،

لأفاد الأدب الفائدة الجلّية ، باطلاعنا على طريقة نظر النقد « الانتقالي » الى ارباب ذلك المذهب الجديد في الشعر ، على تنوع فنونهم ومصادر استلهامهم ، من نصيه الى نسيب عريضه الى فوزي الملوف الى القروري الى غيرهم من شعراء المهجر . بيد انه دلنا على شي . من آرائه في هذا الفن الجديد ، وبالتالي من آراء « الانتقاليين » ، بسكوته عن هزلا الشعراء ، وبمناقضته لميخائيل نعيمة في حكمه على شعر ابي ماضي^(١) .

ومها يكن من امر لعلينا ان نتبع آراء الناقد في الشاعرين المذكورين ، على ما بينهما من اختلاف في الاستلهام الشعري والثقافة النظرية . اما محبوب الحوروي الشرتوتي « فكل انشائه ، ان نظماً او نثراً ، من السهل الحسن . وان اختلف في الغاية ففي الارل يسير مع العاطفة ، وفي الثاني مع الاهواء . » وباختلاف هذين الدافعين تختلف صفة الانشاء ، فتحله العاطفة « على التناقض في شعره ، ويرى المصلحة من وراء الثانية فتدفع به الى الاخذ باطراف النافع المفيد في نثره . »

ولكن ما يهم الناقد انما هو شعر الشرتوتي فحسب ، وهو يجتهد في تدوير شاعريته كما يلي :

« مطبوع على الشعر ، وصانع ماهر ، ينظم البيت ، ويكتبه امامه ، يأخذ في فحوصه . فيلّ وينضد حتى يستقيم له على ما يوحيه اليه طبعه وطريقته فتقرأه ، ولا اثر لما نظمه قبل التسعيس . وقصائده ذوات الاربعين بيتاً مثلاً تنفع في الذائب قبل التنقيح في مائة او اكثر . فيسقط النصف بعد التدقيق ، ثم يحدف من الثاني ما لا يلائم ذوقه . ويضع الباقي تحت النقد الشديد مدة ، حتى يمن الله على العصيدة بالظهور ، فتبرز في حلّة جميلة من الصياغة موشاة بالالفاظ المنسقة ، متجاشياً فيها الروحي من الكلام فيقبلها الذوق ولا يجعها السع . وهذه حنة فتحت له السرّ الى المقام الذي يشغله في دولة الادب . » (٢)

ثم ان هناك اسباباً في شهرته غير هذه « الصياغة » . منها ، في نظر الناقد ، عطف جريدة « الهدى » على الشاعر . ومنها ، في نظره ايضاً ، ان الشرتوتي « يسير على غطى امير الشعراء ، وينهج منهجه » على كونه لم يتعدّ في الشعر سوى

(١) الشعر والشعراء ، ص ١٧٧-١٧٦

(٢) الكتاب ، ص ٦٤

الانواع القليلة فهو « محصور في دائرة ضيقة من مضمار الشعر الفسيح » لا يطرق
الأثران ، والمديح ، والحنين ، وقليلاً من الغزل والسياسة . وكان الناقد يشعر
هنا بالتمرق الالهامي بين من جعله في « طليعة شعراء المهجر صياغة » وسائر
شعراء المهجر الذين « لم يتركوا ملكاً ألا وسلكوه » فيذكر اسما .
القروي ، وفرحات ، والمطوفين فوزي وشفيق ، وايوب . ويكتفي بذكرها .
ثم يتصرف معدداً المطالع والايات التي اخذها الشرتوني عن شوقي اما اخذاً
صريحاً واما ضمناً . ويستتج ان الشرتوني « لا يزال اشد الناس اعجاباً بشوقي .
وليس التقليد الا دليل هذا الاعجاب . »^{١١}

والغريب ان هذا الاعجاب لم يمنع الشاعر الشرتوني من انتقاد شوقي
انتقاداً اثار حفيظة الكاتب — وشوقي عنده المثال الاعلى للشعر كما تقدمنا —
فرد على الشرتوني مبيّناً خطأه في النقد ، ومعدداً هفواته عسى ان يكون له
فيها ما يشغله عن تتبع هفوات الغير .

واهم هذه الهفوات التناقض الكثير في القصيدة الواحدة من قصائده ،
وقلة الشمر ، ونسب الذوق في بعض الابيات ، والابعراض عن الحقائق التاريخية
في الرقص ورا . الخيال والارهام ، وتقليد الشعراء . تقليداً ظاهراً بعض الاحيان ،
وشي . من التناقض التركيبية وابتدال الالفاظ والتعابير ، وقط وايثر من الادعا .
والفخر بالنفس ، وكثير من الانين والحنين والبكاء . ولوعة القلب حتى يصيح
الناقد : « مسكين هذا القلب لو كان صخرًا لذاب من كثرة النحت فيه ! »^{١٢}
« وعلى هذا النحو كل قصيدة من منظوماته تقسم الى اربعة اجزاء : ثلاثة
للحنين والانين ومدح نفسه او الفخر . والجزء الرابع للوضع الاساسي . »^{١٣}
على ان الشاعر ، في مدح نفسه ، يتحدى شوقي ايضاً . فان تكن هذه الصفة
تقيصة فيه فهي تقيصة كذلك في « امير الشعراء » . وهو ما يلجحه الناقد
الاديب ، وما يتوقع ان يمترض عليه . فيرد بقوله ان هناك فرقاً : « فالامير لا
يذكر نفسه الا مرة او مرتين في خمسين قصيدة . والاستاذ تكاد لا تقرأ له

١٢ الكتاب ، ص ٢٥

١١ الكتاب ، ص ٦٧

١٣ الكتاب ، ص ٢٤

منظومة لم يدح نفسه فيها .^١ فتكون المسألة ، والحالة هذه ، مسألة حساب ليس غير . أو لا يرى الناقد أن تبجح الشاعر بنفسه والمناداة بعظم شاعريته على رؤوس الملأ - أكثر من ذلك أم أقل - لمن اعظم درافع الاستمزاز ، ومن اوضح الدلائل على اضطراب الذوق ، سواء أكان ذلك الشاعر محبوب الحوري الشرتوني القائل عن نفسه :

موفي رياض الشعر بلبل شعرها ، والمادنون على النصوص حمام

ام احمد شوقي القائل :

واني لطبر النيل ، لا طبر غيره ، وما النيل الا من رياضك يُجسب

ام المتنبّي القائل - وبيته المصدر الاولي البيتين السابقين -

فدح كل صوت غير صوتي ، قاتي انا الطائر المحكي والآخر الصدى - ؟

ولما ايليا ابو ماضي فيعرفه الكاتب بالجزء الثاني من ديوانه المطبوع سنة ١٩١٩م ، ثم «بالجداول» . ولكنه لم يقف على «الجداول» إلا بعد ان تقدم به مجال النقد ، ونشر في «الهدى» ما بلغ ٢٢ صفحة من كتابه في نقد الشاعر . فدفع من ثم إلى تجبير سبع صفحات الحقها بالنقد المتقدم . وهي في مناقشة ميخائيل نعيمة ، كاتب مقدمة «الجداول» ، أكثر منها في نقد هذا القسم من ديوان الشاعر . والسبب ان الاديب رأى ابا ماضي «هو هو في ديوانه» الجزء الثاني «والجداول» من حيث الشاعرية وسقطاته واحدة في الاثنين . يقول : «من حيث الشاعرية لانه سلك في الجداول مسلكاً طرقة قليلاً في الاول . ولو قابلت بين هذا القليل في الاول والكثير في الثاني لوجدت ان جل ذلك لا كله اعلى طبقة من هذا» . واذا فهو «والسيد ميخائيل نعيمة على طرفي نقيض من هذه الوجهة» .^٢ وما ذلك إلا لان نعيمة يرى في الجداول شاعرية لم تظهر في الديوان .

اما شاعرية الديوان ، بل شاعرية ابي ماضي اجمالاً ، كما رآها الناقد ، فهي ذات مظهرين متباينين تارة «تصور الخيال تصويراً تكاد قلس معه الحقيقة وتختار له الالتقاط السهلة القريبة التناول فيجني الشعر رائقاً شائقاً كالغدير

١٢ الكتاب ص ١٧٧

١) الكتاب ، ص ١٢-١٣

الصافي الشافى امرأه عن الحصباء النقية» وطوراً «تفرط بالمبالغة في الواقع المحسوس قدرته وهما اخذاً بالمفردات الضخمة فيأتي كالصخور الصماء في المغازة الجرداء...»^(١) وقد استشهد الناقد على كل من هذين المظهرين . ثم عطف على الاهتمام بصناعة ابي ماضي فذكر له من حسناته حسن التسيق ، واخذ به بعض الاجيان بالجديد من التعبير ، ودلّ على الكثير من سقطاته التركيبية ، والعروضية ، والذوقية ايضاً ، وما في قوافيه من القلقلة والاضطراب احياناً ، ذاكراً ما اخذه عن شوقي « والغريب من امره انه لا يعترف لشوقي بالامارة ، لكنه لا يأنف من الاخذ عنه . »^(٢) مشيراً الى عدة مقاطع يظهر فيها الابتذال وعدم الضبط ، بما يدلّ على ان شاعرية ابي ماضي الفطرية « لم تهنيها الدراسة وان يكن قد صقلها بعض الصقل كثرة المران . »^(٣) وان صاحبها « قليل النقد لشعره ، كثيره لشعر غيره . . . »^(٤) وكان من نصيبه ان ينتقد غير مرة بعض منظومات شوقي وحافظ ، فذكر الاديب ذلك واردف : « لكنه لم يصب المرمى في واحدة منها . ولعله يتنكب بعد الآن عن انكار الفضل على ذويه وينظر الى غيره بالعين التي ينظر بها الى نفسه ، ويربأ من ان يصحّ فيه قول ابي الطيب :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا ده

ولعلّ الملخص التالي بدلنا اوفر دلالة على رأي الناقد في شعر ابي ماضي ، قال : « ابو ماضي شاعر بالجملة . وفي شعره طلاوة بشوحا عدم التناسب فائتاً تراه رقيقاً سلاً وآونة متسلاً متسلاً . ينصب نارة انصباب الجداول ، وطوراً يتنظر تنظر الاوشال . يبيء في بعض الاجيان بالجديد القشيب ، وفي كثير من الادقات بالمتنزل الزث . »^(٥)

ومن الواضح من هذا الحكم ان الناقد نظر خصوصاً الى المظهر الشعري والصناعة العروضية . يدلّ على ذلك انه حصر عدم التناسب في الرقة والتعمّل ، واستشهد ، في كتابه على « الجديد القشيب » و « المتنزل الزث » ، بايات تظهر هذه الصفات في مبتها فحسب . واذا كان الامر كذلك فيصبح من البديهي ان يكون الاديب الناقد وميخائيل نعيمة « على طرفي نقيض » في هذا الحكم ،

١٣ الكتاب ، ص ١٦٤

١٤ الكتاب ، ص ١٨٢

١٥ الكتاب ، ص ١٥٥

١٦ الكتاب ، ص ١٥٦

١٧ الكتاب ، ص ١٧٥

١٨ الكتاب ، ص ١٨٢

ونعنيه «يرتأني» بينه وبين صاحب الجداول قرابة روحية، ويطلب من الناس ان يقرأوا آيات «تريبه» غير ناظرين «الى قافية متقلقلة او كلمة شاردة»^١ فيظهر من ثم اختلاف القياسين، وبالتالي اختلاف الحكمين. اذ بينما يجمع الاول الى المادية في قياسه، ان صح لنا هذا التعبير، نرى الثاني يميل الى القياس الروحي. وكلاهما ناقصان في نظرنا لان كلا الامرين ضروري للشعر فيتم احدهما الآخر، ولا يمكن الفصل بينهما في القياس، كما لا يمكن الفصل بين الجسد والروح. وان جاز لنا ان نأخذ على الناقد شيئاً فانما نأخذ عليه انصرافه، في جل كتابه، عن الاهتمام بهذه الروحانية في الشعر الذي يتقده، وميله بالاكتر الى درس الصنعة النظرية درساً لا بأس بما فيه من دقة حسن ولطف ذوق وفطرة شعرية، كما قدمنا، ولكنه لا يكفي في الحكم على الشعر اجمالاً.

وقد وردنا لو اهتم الناقد بالنظر الى مصادر الشعر ومهايط الالهام في من يدرسه من الشعراء، ولا سيما شعراء المهجر. وهؤلاء، ان يكونوا قد جددوا من شيء، فانما يعود ذلك الى تحويرهم مصادر الشعر التقليدية. ولا خلاف في ان المستوحيات التي يأخذ بها جل شعراء المهجر هي غير المستوحيات التي لا يزال ينظر اليها اكثر شعراء الوطن. وكذلك القول عن مدلول الشعر، فهو في نظر ارباب المذهب الجديد غيره في عرف اكثر من يذكرهم صاحب الكتاب. فضلاً عن ان مصدر الشعر ذاته يختلف في عقلية شعرائنا العصريين انفسهم، فبينما يراه ميخائيل نعيمة مثلاً في ثنايا النفس البشرية وطيات القلب المتعددة، يسمي اليه نسيب عريضة من خلال ستار تتابه الجيرة والشكوك... الى غير ذلك من تنوعات الدقائق الشعرية المتعددة بتعدد الحاسات والمخيلات. على ان هذا الامر يتطلب درساً دقيقاً يتعمق في تحليل كل شاعرة بمجرد ما ويتابعها على مظاهر تطورها المتعددة، ولم يكن لصاحب الكتاب من مجال للقيام بمثل هذا الدرس. بل اكتفى بعرض ما عن على باله من النظرات النقدية، على الاسلوب الذي اجتهدنا في تجديده. ونحن نقبلها منه على هذا الشكل ليس غير، شاكرين له عمله في تحديد هذه المحطة الاتقالية في شعرنا العصري.